

صمتُ الدهول

صمتُ الدهول.. هنا تحديداً عصفت بي لحظة استنكارٍ
عارمة؛ استغرابٌ فرضَ نفسه عليّ، وعلى المشهد، وعلى
المكان، دونَ أن يلامسَ أطرافَ الآخرين. أَيْكونُ القبحُ
موجعاً إلى حدٍّ أن تفيضَ معه لغةُ الصمتِ بلاغةً وإعجازاً؟
أَيْكونُ القبحُ جريئاً حتّى يرتدي عباءةَ العفاف؟ أيُّ زيفٍ
هذا الذي يجعلُ اللغةَ منكوبةً لدرجةِ الرثاء!

ريماس محمد صقر فهد اللوانسه

صمت الذهول

الفصل الأول

كلمة المؤلف

صمت الذهول.. هنا تحديدًا عصفت بي لحظة استنكار عارمة؛ استغراب فرض نفسه عليّ، وعلى المشهد، وعلى المكان، دون أن يلامس أطراف الآخرين. أَيْكُون القُبْح موجَّعاً إلى حدٍّ أن تفيض معه لغة الصمت بلاغة وإعجازاً؟ أَيْكُون القُبْح جريئاً حتّى يرتدي عباءة العفاف؟ أي زيف هذا الذي يجعل اللغة منكوبةً لدرجة الرثاء!

إن الصمت هو لغة اليأس، والعجز، والاشمئزاز؛ لغة تنطق حين يُبتر اللسان وتنتكس الفطرة. يصبح الصمت حينها طوق نجاة، وساحة رحمة، وثوب عفاف، وشفاء صدر، وصوتاً جليلاً تكسوه الفخامة.. وقبل أن يخيم البأس بحزن منكسر، تدرك أنه لا لغة تضاهي الذهول إلا لغة الصمت.

بقلم: ريماس محمد صقر اللوانس^١

جدار البلادة

يتجرد اللسان من كُهوْلته ويعود إلى المهد؛ عاجزًا عن الكلام وعن السرد حين يُواجه بحائط البلادة. فالنطق إنما يُرسل إلى مُستَقْبِل يدرك ويحس، فإذا تعطل هذا المستقبل وكان غير قادر على إدراك محتوى الرسالة، فما الفائدة إذن من الثرثرة؟ حين أنطق بالعربية - فصحي كانت أم عامية مصريّة أو تونسية أو حتى سودانية - ويقف أمامي أجنبي لا يفهم إلا الإنجليزية، فما الفائدة إذن من القول؟ ولماذا أبذل مجهود الصياغة لشخص يجهل اللغة والحرف؟ وأنا لا أقصد هنا مجرد اختلاف لغة، بل جدّارًا من انعدام المشاعر والفهم... إذن، لأكن أبكم، وإذا تطلّب الأمر، أصم.

زيف المظاهر وعباءة العفاف

في عيد ميلاد طفل يكره الفراولة، رُيّن قالب «الكاتو» بالشوكولاتة لكن حُشي بالفراولة! وفضلاً عن ذلك، في مشهد من مسلسل رمضاني، تخاطب الأم ابنها عن خيانتها للفتاة التي يُحادثها، مستحضرة في ذلك المشهد الأخلاق التي يجب أن يتحلّى بها والرجولة، وهنا قيل للفتاة: «أنت مظلومة».

يا أيتها الملتزمة، أخشى عليك من هذا "الالتزام"؛ فالمشهد الظاهر مُقدّس بالفضيلة، لكن في باطنه من الفظاعة الكثير!

إِعْجَازُ الصَّنِيتِ وَأَبْجَدِيَّةُ الْكَيْنُونَةِ

يَنْطُوقُ الصَّنِيتُ بِلُغَةٍ تُضَاهِي لُغَةَ الضَّادِ فِي إِعْجَازِهَا وَبِلَاغَتِهَا؛ لُغَةُ تَخَاطَبِ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ بِتَكْوِينٍ يَتَنَاسَبُ وَيَمْتَرِجُ بِكَيْنُونَتِكَ، وَتَقْصُلُ ثَوْبًا عَلَى مِقَاسِ كُلِّ لَإِسٍ، وَتَخَاطَبُ كَلِمَاتٍ يَصْعَبُ الْبُوحُ بِهَا.

تَمْرُجُ بِالْأَعْمَاقِ خَطَابَاتُ تَكُونُ مَحْبُوكَةً إِذَا خَرَجْتَ لِلْعَلَنِ، وَفِيهَا تَنْبَثِقُ الْعَيْنُ مِثْلَ عَيْنِ الصَّقْرِ؛ تَسْتَحْضِرُ فَرِيَسَتَهَا بِدَقِّةٍ وَحَذَرٍ. وَتَمْتَازُ لُغَةُ الصَّنِيتِ بِأَنَّهَا أَقْلُ رَغْبَةٍ بِالْأَنْدَمِ، تَجْعَلُكَ رَاضِيًا حَتَّى لَوْ لَمْ تَصِلْ لِمَبْتَغَاكَ، وَحَتَّى لَوْ لَمْ تَكُنْ حَذَرًا.

رثاء

قَدِمَ لِنَفْسِكَ الرِّثَاءُ مَبَكَّرًا إِنْ كَانَتْ لَدَيْكَ الْقُدْرَةُ عَلَى قِرَاءَةِ مَا يُخْفِيهِ الْغَيْبُ، وَإِنْ كَانَ بَصْرُكَ ثَاقِبًا فَعِنَاؤُكَ كَبِيرٌ؛ فَالْعَيْنُ تَنْظُرُ وَالْقَلْبُ لَا يَسْتَلْطِفُ الْكَثِيرَ. يَظُنُّنَا الْبَعْضُ أَغْبِيَاءَ، وَنَحْنُ اخْتَرْنَا ارْتِدَاءَ الْغَبَاءِ رَغْبَةً فِي التَّخْفِي وَالْخَوَاءِ؛ فَالسَّبَاحَةُ أَحْيَاءًا كَمَا الْفَضَاءُ، رَاحَةُ قَلْبٍ وَرُوحُ وَجَسَدٍ. تَنْطُوقُ التَّفَاصِيلُ قَبْحًا كُلَّمَا تَكَلَّمْتَ بِلُغَتِهَا، لَتَمْتَرِجَ مَعَ الْبَلَاءِ.

صوت الحقيقة

عند سطوع الحقيقة يموت الماضي ولا يمكنه الرجوع،
وللحقيقة صوت واحد وهو صوت الحق؛ فكل ما هو حقٌ
حقيقي، والحقيقة حقٌ يُظهر المخفي إلى العلن. هذا كتاب
محفوظ، وقولٌ مؤكّد ومحكوم؛ ففي محكمة الكذب تنطق
الحقيقة دائماً كآخر قرار حكم. وهي قد تؤلم، وقد تجرح، وقد
تفرح، ولكن الأكيد أنها تعيد كل شيء إلى نصابه الحقيقي.
تفوق علاماتها الوضوح، وتتجلى بكل تفاصيل العلن؛ فوحده
الرائع يرى، ووحدها الخيوط الرفيعة تكتب، والقلم البليغ
يحتاج إلى مثقف طموح يُحسن القراءة بكل وضوح.

نعم الرفيعة أنت

تواجهك نفسك عند مطلع الفجر، تجلس قبالتك على مهل
وتسألك بصراحة لا مواربة فيها: أيها المار في أزقة الأيام، ما
مضى من العمر لا يعود، وما أنت بفتى البارحة الذي كان يرى
الحياة مضماراً؛ أفي كل صباح تبتدئ كأتك لست أنت؟
فتجيئها والروح تتردد في صدام الحقيقة: لا أنا أنت الكسيرة،
ولا أنت أنا الغريب؛ اليوم أصافحك بوعي جديد، فإن أقبلت

على التغيير فنعم الرفيقة أنت، وإن أبيت فلا طاقة لي بجّر
جثة الأمس إلى الغد.

فتنظر إليك بعين العارف وتهمس كمن يرثي العابرين: 'يا هذا،
ليس الموت خشباً يُسمّر ولا تربة تُهال؛ القبر الحقيقي هو
الجسد حين تموت فيه الرغبة ويبقى النّفس طالعا نازلاً.. هناك
موتٌ يمشي على قدمين يظن أصحابه أنهم أحياء.'
فتصمت طويلاً، ثم تقطع الدهول بقولك: إذا غدوت اليوم غريباً
عني وغدوت غريبة عني، فلا بأس أن نتوه في بحر هذا الوعي
الجديد؛ فالعقل الذي يسير في ضوء الحقيقة الساطعة، من ذا
الذي يستطيع بعدها أن يردّ فيه زيف الطمأنينة الأولى؟

موسم العار

العيب موسم العار وشعار الفساد حينما يغيب العقل، والعقل
قادر على الغياب، بل إن له القدرة على السبات أحياناً، وإن ذلك
سُمي في القرآن غفلة.

اللحظة التي يطفو فيها الهوى على الهوية والغاية العظمى التي
خلق الإنسان لأجلها؛ وسحفاً للحظة هي سراب وغيمة ممتلئة

لم تَمُطر بعد! ينام المرء عن غاية وجوده، ورّبما يمرّ على ذلك الشهر بدلاً من السنة، ورّبما سنوات... وماذا إذن؟ نفس خائبة، وعقل خاو، وقلب فاسد، وميزان فارغ. ثم ماذا؟ ثم لا نفس ولا حركة، تحلق الروح في الوسط، تعيش على حافة الحياة، تقبل بلا شيء.

هناك لحظة يمرّ بها الإنسان، ينظر فيها إلى نفسه بعد عمر وأمل وطموحات كثيرة، ويدعو لو أنه اكتفى بهدف واحد وحسب: أن يعيش مستقيماً، سليم القلب والفطرة.

ولكن بعد غفلة، يتأمل المرء ليدرك كرم الله علينا؛ إذ أهدانا نعمة عظيمة وهي التوبة. وهنا تحديداً أفهم لماذا أعطانا إياها، ولماذا لم تكن محدودة؛ لأن هذه النفس البشرية مرهقة حقاً، وتعيّسة وذليّة إن ابتعدت، فكم ترضى بسفاسف الأمور والله أعطاهما الفضل!

ولنا حرب مع الشيطان الذي يريد أن يجردنا من القيمة، ويسعى ليعود بنا إلى أسوأ من القاع لننكر هذه الذات، ولا نستطيع أن نقدم لها شيئاً.

ابن عاق

أصعب أنواع الاصطدامِ صدامك مع النفس حين تخون ذاتها؛
تواجهك بقسوة وتتجرّد منك، كما لو أنها أعلنت براءتها من ابن
عاق، وتقول لك إنها النفس التي لطالما علقت مرآة لصورة
مقدسة منها، فأبي تجرؤ على قدسيتها يُعد انتهاكا لا يقبل
الغفران. تنطق لتعلمك كاقرا بعقيدتها، وتنفيك عن موطنها؛
فتغترّب، وأشد أنواع الغربة غربتك مع نفسك.

الغربة

الغربة تعني عدم الانتماء، ومن لا يمتزج فلا بُد أن ينفرد. وهنا
تحديداً يتجلى الضياع، ففي الانفراد ضياع، ولا يعني ذلك
خساراً بالضرورة، بل قد يكون أحياناً قُمة الفوز.

ملجأك الأخير

ثمة لحظة يرتدي فيها المرء البلادة ولا يعود من هناك أبداً؛
ينتصر فيها الجمود، وينكسر الشعور، وتموت الشاعرية، فيصبح
المرء أمام نفسه مستنكراً، ثم ينتهي الإنكار بالترحيب الحار.

وجه آخر

أخدعها لعلها تصاقحني، فترفض المصافحة والصفح عني،
فأقول: يا نفس، أما أن لك أن ترضي؟ فتستمر في عيها
وتجاهلي.

تَنكّر مقبول

نتنكر بأشدّ أنواع القبح أحياناً، ونتنكر بأشدّ أنواع الجمال أحياناً أخرى، ونسقط من المشهد الواقعي لنمثّل على خشبة مسرح؛ نرتدي أزياء شتّى ومختلفة، نحُب بل ونعشق حفلات التنكر، بل ربما نبهر ولا نخجل حتى من أنفسنا!

الفصل الثاني

أثر الخطأ

يُشَبِّه الخطأ الوشم بالتقاطه ومغزاه؛ فالوشم رسالة كتبتّها
لتريتها للعلن، وذكرى حَقَرْتُ بِقَلْبِكَ أَوَّلًا فَأَرَدْتُ أَنْ تَحْقَرَهَا عَلَى
جَسَدِكَ كإِخْلَاصٍ وَوَفَاءٍ. الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَطَا أَنَّهُ يَلْتَصِقُ بِكَ
مِنْ غَيْرِ رَغْبَتِكَ، وَمِنْ دُونِ إِخْلَاصٍ؛ وَإِذَا تَكَرَّرَ خَطُوكَ ثَلَاثَ
مَرَّاتٍ، يَكْفِيكَ أَنْ يَكُونَ ثَلَاثًا حَتَّى يَوَسِّمَهُ الْآخَرُونَ عَلَى جَبِينِكَ.
نُخِطِي، فَإِذَا أَدْرَكْنَا حَاوِلَنَا أَنْ نَجْعَلَ مِنْ أَخْطَائِنَا رِمَادًا، وَلَكِنَّهَا لَا
تَصِيرُ رِمَادًا حَتَّى تَحْتَرِقَ، وَفِي مَرَحِلَةِ احْتِرَاقِهَا أَضَاءَتْ فَرَآهَا
الْجَمِيعُ.. وَالْعَيْبُ لَيْسَ فِينَا، بَلْ بِالْعُقُولِ الَّتِي تَرْقُضُ التَّغْيِيرَ.

عرش الثقة

عندما يهتّز عرش الثقة، تزاح الإمكانات إلى أدنى مكانة. فالصعوبة تكمن في أن الثقة ركيّة إما أن ترفع المرء أو تهدمه؛ ليغدو ضعفها غرورًا، ورعايتها تثبيتًا للجذور لكي تتكون وتورق الأغصان. فالأفكار لا بد لها من أصل، وأصل الإنسان الدفء؛ فإن أصاب الخلل الأصول، تساقط كل ما عليها من ثمر، وصارت النفس هي العائق الأول أمام ذاتها، فيصعب مجابهة هذا الصعب أو التفوق على مصاعبه. ولأن لبعض النفوس رغبة تصادم الواقع، يضيع ذلك كله هباءً منثورًا؛ فإن انعدام الثقة يبخس المواهب حقها، ويعدم الفرص.

الأخذ والعطاء

تُبنى العلاقة الإنسانية السويّة على الأخذ والعطاء، فإذا رَجَحَتْ
كفّة على الأخرى أصبحت عبئًا لا يُطاق؛ ولأن بعض الأشخاص
يتقنون فنًا واحدًا وهو الأخذ لا العطاء، تتدَمَّر العلاقة بل تتزعزع.
وهناك أدوار إنسانية تحتاج منك المثابرة، فلك في الحياة أولًا
قِمة من الأخذ، ولك قِمة من العطاء؛ ففي وقت عطائك لا تكن
جشعًا وتُعطي القليل، إذ يموت الإنسان عند انتهاء ما كُتب له ممّا
يُقدّم.

المغفرة

وتظن لبرهة أن الأمر هين؛ حين ينزل الله عليك بالمغفرة،
ويكرمك بنور التوبة، ففي سعة رحمته تسلك الكون بعين
مستصغرة، ظاناً أن الغفران مسلك ميسور.. حتى تعصف بك
الحياة الخاصة، لتريك أن المغفرة أشق مسرى مما تتجلى لك،
وأن القلوب وإن عظمت، ففيها من الرحمة قليل.
وعند الوقوف على حدود غفرانك الضيق، يتجلى لك جبروت
غفران العظيم. إن على القلوب أن تتجلى إيماناً أولاً، وقوة ثانياً،
لتكون قادرة على الغفران؛ قلت: "غفراناً" ولم أقل: "تسامحاً"،
لأن المغفرة أشد انتزاعاً وأكثر تجرداً؛ فأن تغفر يعني أن تمسح
الأثر كأنه لم يكن، أما أن تسامح؛ فأنت تصفح، ولكنك تحتفظ
بالندبة.

وهم الإنجاز

يفتح الطالب كتابه، يروح ويجيء قارئاً محتوى ما بين يديه، فتعصف أجهزة التشّت بإشعاراتها، ليفتحها لدقائق معدودة، ثم يعود، ويستمرّ على هذا الحال. تأتي النتيجة على عجل، فينظر وإذا بعلامته متدنية؛ ينوح ويندب، مدّعياً أنه بدّل وأنجز، فما باله لا ينال ما يستحق؟!

من هنا، يقع المنقاد لوهم الإنجاز في القح؛ ووهم الإنجاز أشد فتكاً من الكسل نفسه، فأن تؤمن بأنك قدمت شيئاً ليس كمن يعلم يقيناً أنه لم يُقدم شيئاً. وما هذا الطالب إلا نموذج مصغر لألما العام؛ فنحن كلما تراقصت السنوات على عداد أعمارنا، فاضت الأخطاء منا؛ فلا نحن ندركها، ولا هي تكف عنا. إن العشرينات طريق يجب أن تكون ملامح الوجه فيه واضحة، لكننا نغوّص في الخيال ووهم الإنجاز، لنستيقظ على أجل لم نختره، بل قدرناه لأنفسنا بأيدينا. يتشابك الخيال مع وهم الإنجاز التصاقاً وثيقاً؛ فكلما اتسعت بؤرة الخيال لديك، كان وهم الإنجاز وحشاً متربصاً ينتظر اللحظة للانقضاض عليك.

العلاقات العابرة

مَرَّوا مَرَّورَ الْعَابِرِينَ فِي الطَّرِيقِ، وَلَوْحُوا بِأَيْدِيهِمْ لَنَا، فَظَنَّنَا أَنَّ
كُلَّ مَا رِ بَاقٍ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ قَضَيْنَا مَعَهُ بَعْضَ الْوَقْتِ صَدِيقٌ.
العلاقات الإنسانية معقدة، غريبة، وغير مفهومة؛ ولذلك لا
تَحْمِلُ مَعَكَ قَلَمًا لِتَصْنِفَ وَتُسَمِّيَ مَنْ حَوْلَكَ، ففِي ذَلِكَ انْزِلَاقٌ
كَالْهَبْوَطِ فِي بَيْرٍ سَحِيقٍ.

لِلوُجُوهِ بَطَاقَاتٌ دَعْوَةٌ، وَكُلُّ عَابِرٍ يَقْدُمُ بِطَاقَتِهِ عَلَى عَجَلٍ،
فَنَقْرُؤُهَا لِتَتَضَحَّ الْمَلَامِحُ؛ لَيْسَ كُلُّ عَابِرٍ صَدِيقًا، وَلَا كُلُّ صَدِيقٍ
مُخَلَّدًا. وَتَكْمُنُ مَجْدُ الْعِلَاقَاتِ فِي الْإِنْطِلَاقِ وَالتَّحْلِيقِ؛ فَإِذَا
اسْتَطَعْتَ فَكَّ دِهَالِيزِ هَذِهِ الْمَعَادِلَاتِ الْمَعْقَدَةِ، غَدَوْتَ قَادِرًا عَلَى
الْتِرْحِيبِ وَالتَّوْدِيعِ بِقَلْبٍ يَتَنَقَّلُ كَطَائِرِ الْقُطْبِيِّينَ: وَطَنُهُ الطَّرِيقُ،
وَسَكَنُهُ الْمَدَى، وَأَرْضُهُ نَقْطَةٌ وَاصِلَةٌ بَيْنَ هَجْرَتَيْنِ.

الحاجة الاضطرارية بين القدرة العقلية وفائدة التعلم

مثل معرفة الوقت عن طريق الساعة اليدوية أو البوصلة، أو معرفة الطقس؛ كم تميّز الإنسان القديم بفضل قدرته العقلية الناتجة عن الحاجة الملحة للتعلم المستمر، وعدم الاتكالية على غير النفس البشرية. بينما نحن، عندما سلّمنا مهام كثيرة للذكاء الاصطناعي أو الحاسوب بمختلف أنواعه—من العمليات الحسابية إلى معرفة الاتجاهات والطقس والوقت في اليوم العادي—أصبحت حياة الإنسان الحديث أكثر سلاسة، ولكن يومه في الوقت نفسه يكاد يخلو من الاستعمال العقلي. فمثلاً، لن أحاول أن أحسب مسألة إذا تجاوزت أرقامها ثلاث خانات، بل أسلم نفسي للركود. بينما كان الإنسان القديم مجبراً على الاعتماد الكامل على قدراته العقلية لاستخراج الجواهر الثمينة المخبأة في مجتمه.

وهنا يطرح السؤال: هل يمكنني التطوير من هذا الإنسان الحديث إذا قمت بتوكيله مهام يومية بسيطة تحرك أعصاب المخ للعمل؟ الأرقام والمسائل ليست إخفة الأعمال، بل لتحريك

الدماغ. فالغالب أن مشكلة الإنسان الحديث هي الركود قبل أن تكون التكنولوجيا هي المشكلة. فأنا أقول هنا إن الإنسان ليست مشكلته بالجديد إطلاقًا، بل في كيفية التعامل مع هذا الجديد تحديدًا.

مثلًا، يمكنني اليوم استخدام الذكاء الاصطناعي لإنتاج صورة للوحة فريدة وجديدة كليًا، لكن بدلًا من ذلك، يمكنني أن أملك براءة اختراع، وذلك بأن أبدل مجهودًا عقليًا لإنتاج هذه الفكرة وطلبها.

المشكلة هنا بالتحديد: لماذا نلجأ للاستبدال؟ الإنسان القديم فرضت عليه البيئة تدريبًا عقليًا مستمرًا، بينما الإنسان الحديث مطالب بابتكار هذا التدريب اختياريًا وبوعي، لأن بيئته أصبحت مفرطة في السهولة.

لماذا صمتُ الذهول؟

لماذا صمتُ الذهول تحديدًا؟ لأن الذهول لغة العجز والاستغراب والاستنكار، وعندما يختل العقل واللسان عن أداء وظيفتهما الطبيعية، ينطق الصمت هنا ليكون الحل. فكم من أشياء عجز الإدراك لدينا عن فهمها! وكم من تساؤلات نطقت تستغرب فرض غير المألوف علينا، والنفس إنما تنجو بالصمت.

لغة البيت

الطفل هو الانبثاق الأول لرائحة البيت؛ عندما يحين الوقت لخروجه إلى العالم الخارجي وتواصله مع المحيط، فذلك الطفل لا يجيد إلا لغة واحدة وهي لغة البيت، وعطاؤه محصور بما قدم له وما ألقه من طرق التواصل. لذلك، في أزقة المدارس، تتصادم مع طالب لطيف وآخر قاسي، وطالب هادئ وآخر مزعج.

الجوهرة المخبأة

لدى الإنسان منا جواهر موهوبة له من الخالق جلّ وعلا كهدية؛
ففي كل واحد منا تميّز أو ميزة، لكن هذا التميّز يظهر لدينا في
السنين الأولى، وسرعان ما يسرقه منا المحيط بالإهمال. ونعم،
يقع علينا جزء من المسؤولية، وربما كنا نحتاج فقط إلى
التوجيه.

في ختام هذا الإبحار في أعماق النفس والبشر،
أدرك أن الحقيقة - وإن كانت تؤلم أحيانًا - هي الملاذ الوحيد
الذي يعيد الأشياء إلى نصابها. لم تكن هذه السطور سوى
مرآة نرّد بها زيف الطمأنينة الأولى، ودعوة صادقة للتصالح
مع ذواتنا، وللغفران، وللتوبة من غفلات العمر. ختامًا.. أتمنى
ألا نعتاد البلادة، وألا نرضى بسفاسف الأمور، وأن نملك
دائمًا شجاعة أن نكون كما نحن، بلا أقنعة ولا تنكر.